القلب الشجاع

حمزة بن عبد المطلب

رضي الله عنه

يخشى الباطل القلب الشجاع
مهما امتلك من سلاح فتاك

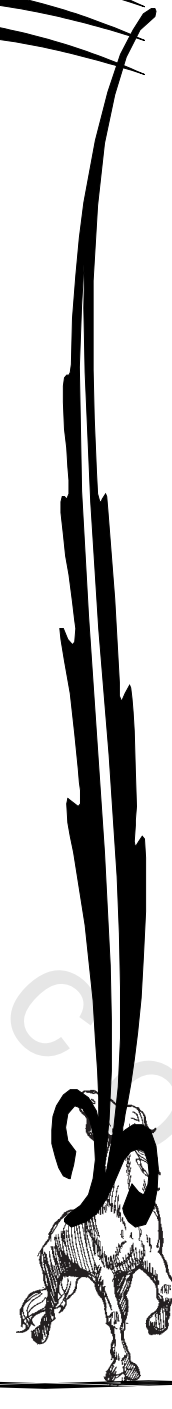

obeikandl.com

«عجيب أمر حمزة، مكة كلها تغلي، وقريش تطارد ابن أخيه منذ سنوات، وهو لا يعبأ إلا بالصيد!».

نطق بها باستغراب واضح أحد أسياد قريش المجتمعين –كعادتهم– في مجلسهم بجوار الكعبة، بعد أن مر عليهم حمزة ليلقى عليهم التحية، ويتحدث معهم قليلا، ثم يتركهم إلى وجهته المعتادة إلى قوسه وأسهمه ولوازم الصيد.

وهنا لاحقه آخر قائلا :

– لا أعتقد أن حمزة لا يعنيه الأمر بهذه الصورة، لابد أنه يحمى صاحبه بطريقة أو بأخرى، حتى وإن كانت هذه الطريقة هي محاولة إضفاء عدم الأهمية على ما يفعله محمد، حتى يصرف عنه أنظار قريش.

هكذا حير أمر حمزة بن عبد المطلب – زينة شباب أهل مكة ورجلها الشجاع القوي– قريشا.

وربما كانت الحيرة تصيبه هوأيضا بين الحين والآخر، وربما كان يطرد التفكير فيها برحلاته المتواصلة للصيد، رغم ما يعرفه عن حرب قريش للرسول ﷺ وأصحابه، طيلة ما يقرب من خمس سنوات.

والحقيقة أن الأمر كان محيرا بالفعل؛فعلاقة حمزة بالرسول ﷺ لم تكن علاقة عادية أبدا.

بل كانت علاقة خاصة ونادرة.. جمعت بين القرابة والصداقة والأخوة.

فحمزة هو عم الرسول ﷺ، وأخوه في الرضاعة الذي يكبره بعامين، بعد أن رضعا معا من «ثويبة» جارية أبي لهب.

وفوق هذا وذاك، فهما الصديقان الحميمان اللذان عاشا معا أحلام الطفولة البريئة سنوات وسنوات، يلعبان ويمرحان، ويملآن الدنيا لعبا وضحكا.

وخلال أربعين عاما من الصداقة الحميمة، عرف حمزة صديقه جيدا.

الصديق المخلص الودود العطوف، والشاب الصادق الأمين الحكيم المجتهد.

لم يلحظ حمزة في صاحبه يوما ما يعيبه، أو يحاول أن ينتقص من قدره، أو يدعوه إلى الشك فيه.

إلى أن جاءت اللحظة الفارقة في حياة الصديق محمد ﷺ، في عامه الأربعين.

محمد ﷺ يقول عن نفسه: إنه نبي. يدعوالى عبادة إله واحد لا شريك له.

ورغم غرابة الأمر الذي يصل في بعض الأحيان إلى حد الصدمة، إلا أنه كان من المتوقع منطقيا، أن يكون صديقه الحميم حمزة من أوائل من يصدقه ويستوعب موقفه، ويؤمن برسالته.

إلا أن ما حدث من حمزة، كان بعيدا عن المنطق مسافة الأربعين عاما التي ظل فيها صديقا حميما لابن أخيه.

ورغم أن حمزة كان معروفا عنه أنه اجتماعى بطبعه، يشارك الناس منتدياتهم ومجالسهم،إلا أنه - في هذا الأمر بالتحديد- فضل الابتعاد، وتجاهل الأمر إلى أقصى حد !

ورغم ما عرف عن حمزة من البطولة والفروسية والشجاعة والجرأة، إلا أنه لم تسعفه شجاعته وجرأته يوما، ليناقش صاحبه فيما أتى به من رسالة.

ووصلت الغرابة شدتها، إلى أن يرى حمزة ما يلاقيه صاحبه وابن أخيه وأخوه في الرضاعة من اضطهاد وإيذاء شديدين، طيلة خمس سنوات كاملة من سادة قريش، هو وأصحابه.

وهو يتجاهل الأمر تماما.

إذن حمزة مصر على التجاهل.

مصر أن يتجاهل مكة وهي تغلي، من جراء الانقلاب الفكري الذي أتى به النبي الجديد.

صاحبه محمد ﷺ.

مصر أن يشاهد كل يوم أصحاب صاحبه يعذبون في صحراء مكة، ويستمع إلى الأحاديث الملتهبة لقادة قريش كل يوم في ندواتهم وجلساتهم بجانب الكعبة، ثم يترك ذلك كله ليأخذ قوسه وأدوات صيده في رحلة صيد!!

هل هو هروب من الموقف الذي لا يريد أن يواجهه بشجاعة ؟ ربما.

هل هوالضعف الإنساني المعتاد أمام التقاليد الموروثة؟ محتمل.

لكن المؤكد..أن شخصية كشخصية حمزة بن عبد المطلب، لم تكن لتستمر على هذا الموقف الغريب إلى الأبد.

فلابد أن شيئا ما سيثير تلك الرجولة والشجاعة وحمية القرابة والصداقة والإخاء.

ولقد حدث بالفعل.

وهز الحدث أرجاء مكة..كلها.

* * *

«يا أبا عمارة.. لو رأيت ما لاقى ابن أخيك محمد آنفا، من أبي الحكم بن هشام.. وجده جالسا هناك، فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره».

هتفت بها جارية عبد الله بن جدعان، في وجه حمزة بن عبد المطلب وهو عائد من رحلة صيده المعتادة، والذي ما إن سمع ما قالته الجارية، حتى اكتسى وجهه بالغضب،وصاح في وجه الجارية قائلا في عنف:

- ماذا حدث ؟

وأدركت الجارية التى كانت تخفى إسلامها، أن مخططها في طريقه إلى النجاح، فاستجمعت كل طاقتها في أن تروي ما حدث بالصورة التي تصل بغضب حمزة إلى قمته.

ولقد كان.

فما إن انتهت الجارية من حديثها، حتى تحولت ملامح حمزة إلى ملامح أسد يريد أن يثأر لصديقه وقريبه من إهانة أبي جهل له، وبكل قوة، حمل حمزة قوسه وتوجه به مسرعا، باحثا عن أبي جهل في كل مكان.

وفي مكان ما بجوار الكعبة، لمح حمزة أبا جهل وهو يجلس وسط مجموعة من أسياد قريش.. وما إن لمحه حتى توجه إليه والشرر يتطاير من عينيه، وما إن اقترب منه، حتى رفع قوسه على رأس أبي جهل؛ ليضربه ضربة أسالت الدماء من رأسه وهو يقول في عنف:

- أتشتم محمدا وأنا على دينه، أقول ما يقول؟ ألا فرد ذلك علي إن استطعت.

ربما كانت الكلمات أشد وطأة على أبي جهل ومن حوله، من ضربة حمزة إياه التي شجت رأسه.

وربما أنساه ما قاله حمزة ما أصابه، فوقف للحظات في ذهول هو ومن معه، في محاولة لاستيعاب ما نزل على مسامعهم منذ لحظات.

وفي محاولة يائسة من أحدهم لاستيعاب الموقف، سأل حمزة في ذهول قائلا:

- أصبأت يا حمزة ؟!

وبكل العنف والقوة والغضب والتحدي، يرد عليه حمزة قائلا:

- نعم صبأت.. ردني إن استطعت.

وأمام ذلك الغضب الهادر، الذي تحول إلى شرار يتطاير من عيني حمزة، تملك الخوف زعيمهم أبا جهل، حتى قال لمن معه في استكانة لازال يغلفها الذهول:

- اتركوه.. فلقد سببت ابن أخيه سبا قبيحا.

ويلقى عليهم حمزة نظراته الغاضبة، ويتوجه بعدها إلى منزله، بعد أن تركهم أسرى لمفاجأة مذهلة، لم تكن على بال أحد منهم على الإطلاق.

إلا أن المفاجأة لم تكن لأبي جهل وقريش فقط؛ فلقد طالت المفاجأة حمزة أيضا !!

فلم يكن حمزة يتوقع أن يقول ما قال، ولم يكن يخطط أبدا لما حدث.

لقد أسلم حمزة دونما أي اقتناع، وأعلن بكل قوة أنه على دين الإسلام دون تفكير في الأمر، أو حتى معرفة بالدين نفسه.

لقد أدرك حمزة أنه تورط، في أمر لم يخطط له على الإطلاق.

أو بالأحرى.. لقد ورط حمزة نفسه.

أخذ التفكير يعصف بحمزة على مدار ليلة كاملة، لم يذق فيها طعما للنوم، إلا أنه ومع إشراقة الشمس وزقزقة الطيور، كان قد اتخذ قرارا تأخر كثيرا، وقد حان وقته الآن.

لابد أن يذهب إلى صاحبه يحكي له ما حدث، ويتحدث إليه، لعله يستريح.

أخيرا.. سيذهب حمزة إلى صاحبه محمد.

أخيرا.. سيواجه حمزة ما كان يهرب منه منذ سنوات.

أخيرا.. سيسلم حمزة، ويعود مع صاحبه ليكمل الطريق.

الطريق الطويل.

* * *

«حمزة ؟»

ربما اشتاق حمزة أن يستمع إلى اسمه من صاحبه منذ زمن.

وربما كان الاسم هذه المرة، ينبض بخليط من مشاعر الشوق والفرح والعتاب.

وربما كانت العيون تتحدث. لتحكي ما لا تستطيع أن تنطق به الألسنة..

وسادت لحظات من الصمت، تتسع لأربعين سنة من الصداقة والحب بين الرسول ﷺ وحمزة.

تعرضت لهزة عنيفة طيلة خمس سنوات.. نعم، ولكن.. أذن الله لها أن تعود الآن..و

« نعم حمزة »

همس بها حمزة للرسول ﷺ في خجل، ثم تابع وقد حملت كلماته هما لا يخفيه وهو يقول:

– يا ابن أخي.. لقد وقعت في أمر عظيم.. ولا أدري ماذا أفعل؟

كان الخبر قد وصل الرسول ﷺ بالفعل، وكان يعلم أن حمزة قد واجه نفسه أخيرا، وإذا واجه حمزة، فلابد أن ينتصر.

ولم يكد حمزة العاقل، أن يستمع إلى حديث الرسول ﷺ عن الإسلام حتى اقتنع، وامتلأ قلبه بالإيمان، وشرح الله صدره للإسلام.

ويتحدث الرسول ﷺ.. ومع كلماته، يزول الهم شيئا فشيئا، وتنفرج الأسارير، ويضيء القلب بنور الإيمان ويعلن حمزة الشهادة بكل قوة.

«أشهد أنك لرسول الله»

الآن قالها حمزة، واثقا مرتاح الضمير..

الآن ينضم حمزة بكامل قوته واقتناعه لصف المؤمنين..

الآن تعود الأحاديث الطويلة مرة أخرى بين حمزة وصاحبه..

أو.. بين حمزة والنبي ﷺ.

ويقبل حمزة على الإسلام بكل جوارحه، وينبض قلبه بالإيمان ليرتفع ويرتفع بجناحيه محلقا في عنان السماء، و يسبح خياله بعيدا، حتى يطلب من الرسول ﷺ طلبا مدهشا لم يتوقعه النبي ﷺ.

لقد طلب من الرسول ﷺ رؤية جبريل..

وعندها نظر إليه الرسول ﷺ في دهشة قائلا:

«إنك لا تستطيع أن تراه»

إلا أن حمزة لم يستطع تقدير الموقف، وأصر على رؤية جبريل، وأمام إصراره وافق الرسول ﷺ على طلبه؛ ليذهب به إلى الكعبة يوما، نزل فيه جبريل على خشبة كان المشركون يضعون ثيابهم عليها عند الطواف.

وعندها.. نظر جبريل إلى حمزة قائلا له في ترقب:

« ارفع نظرك يا حمزة..وانظر ».

وما هي إلا ثوان، حتى سقط حمزة مغشيا عليه.

كان الموقف شديدا على حمزة، أفاق بعدها؛ ليزداد يقينه عشرات المرات، ويدرك معها معنى النبوة وقيمة الرسالة.

من الآن سيتجاهل حمزة أدوات صيده.

وينطلق بكل جوارحه مع صاحبه في رحلته الطويلة، والشاقة.

* * *

بلا شك.. كان إسلام حمزة صدمة قوية للمشركين، والذين كانوا على موعد مع صدمة أقوى وأشد بعدها بثلاثة أيام، إلا وهي إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وأسقط في أيدي قريش، بعدما وجدوا الدعوة تضم إلى صفوفها خيرة شباب مكة.

وبعد عامين من الهزائم المتتالية لقريش، لم يجد أسيادها بدا من أن يعلنوا الحرب الاقتصادية والاجتماعية على المسلمين، بمقاطعتهم وحصارهم في شعب بني هاشم.

وعلى مدى ثلاث سنوات صعبة، يقف حمزة بجوار صاحبه النبى ﷺ، في أشد محنة واجهها المسلمون في مكة، إلى أن كتب الله لصمودهم الأسطوري النهاية في السنة العاشرة من البعثة، ليأتي بعدها فتح الله، في بيعة العقبة الأولى والثانية.

إلى أن تأتي الهجرة.

ويلبي حمزة نداء الإيمان، فيهاجر إلى المدينة قبل صاحبه بقليل، منتظرا قدومه مع المئات على

أبواب المدينة، داعين له من قلوبهم بالأمان والسلامة.

وهناك.. في المدينة.

بدأ حمزة يشق طريق بطولاته في الجهاد في سبيل الله.

لينال شرف اللقب.

لقب..«أسد الله».

* * *

في المدينة.. جاء وقت حمزة.

فأمثاله كانوا ينتظرون أيام الجهاد بكل شوق؛ لذا.. كان حمزة صاحب القيادة في أول سرية للمسلمين في المدينة.

وبعد عامين أدركت مكة أن إسلام حمزة، لم يكن أول الجروح التي سببها لهم.

فمازال حمزة قادرا على الإيلام بصورة أقسى وأشد.

وفي بدر..كان حمزة مؤلما..مؤلما بحق.. و

«اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم فلن تعبد في الأرض».

كان هذا هوالدعاء الأخير للرسول ﷺ قبل بدء المعركة، بعد أن اصطف الجيشان أمام بعضهما، كل يتحفز للآخر في انتظار إشارة البدء.. بعدها بدأ الرسول ﷺ في تسوية الصفوف الأمامية للجيش، ويصدر تعليماته النهائية للجنود.

وبدأت المعركة.

وكما هو متبع.. تبدأ المعركة بمبارزة فردية من كل طرف و..

«أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه أو لأموتن دونه».

صاح بها الأسود بن عبد الأسد المخزومي، فارس جيش المشركين الشرس، وهو يخرج للمبارزة التمهيدية للحرب.

إلا أنه – ولسوء حظه – كان على موعد مع بطل فريد من نوع خاص، لطالما شهدت به مكة واعتزت به كواحد من أبنائها الأفذاذ..

إنه حمزة بن عبد المطلب.

لم يكن يعلم أنه يواجه أسد الله، وأسد رسوله ﷺ.

لكنه بعد دقائق قليلة، عرف وتيقن من يقاتله.

فما هي إلا دقائق، حتى كان طريحا على الأرض، بعد أن عاجله حمزة بضربة قوية في وسط ساقه

تحت الحوض، فوقع على ظهره لا يستطيع الحراك، وبسرعة خاطفة، يلاحقه حمزة بضربة أخرى قوية، تنهي حياته وتبخر أحلامه الساذجة.

لم ينته حمزة بعد من إيلامه لمكة.. فهذه لم تكن سوى البداية.

يشتد الغيظ بجيش المشركين، ليخرجوا ثلاثة من فلذات أكبادهم في المواجهة التمهيدية الثانية.

فيخرج عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة.

وفي لحظة، كان في المواجهة ثلاثة من شباب الأنصار..الأخوان عوف بن الحارث ومعوذ بن الحارث، وعبد الله بن رواحة..

إلا أن المشركين طلبوا غيرهم..فهم جاؤوا يحاربون أهلهم.

إنه الاختيار الذي ضاعف آلامهم.

ونظر الرسول ﷺ إلى جيشه، لينتقي منه ثلاثة من المهاجرين.

وبعد برهة من التفكير.. قال الرسول ﷺ في ثقة القائد الذي يعتز بجنوده ويعرف قدرهم:

قم يا عبيدة بن الحارث.. قم يا حمزة.. قم يا علي..

حمزة مرة أخرى..

لقد اختارت قريش أن لا تنتهي، حتى يؤلمها حمزة أكثر وأكثر.

ولقد آلمها هذه المرة في شيبة بن ربيعة، حيث لاحقه بضربة سريعة أودت بحياته، فطرحه على الأرض صريعا.

ويذهب عقل المشركين، فقد فقدوا ثلاثة من خيرة فرسانهم في أقل من ربع الساعة، فيهجمون على المسلمين بكل قوة، هجمة رجل واحد، ويتصدى المسلمون للهجوم بشجاعة نادرة وبشوق إلى الشهادة في سبيل الله، في كل لحظة.

ويدعوالرسول ﷺ بكل مشاعره وجوارحه، وبكل ما أوتي من إيمان بربه، ورجاء في رحمته.

وينزل الله ملائكته، ويهرب إبليس من المعركة، وينبح أبو جهل في جنوده في محاولات يائسة.

ويأتي نصر الله.

مفاجأة مذهلة للجميع.

لقريش في مكة، ولليهود والمنافقين في المدينة.

وللمسلمين أنفسهم.

وللجزيرة العربية كلها..

وترتفع معنويات المسلمين إلى عنان السماء، وينكسر المشركون انكسارا عنيفا.

لكن يتبع هذا الانكسار، عزم أكيد على الثأر من المسلمين.

ومن محمد ﷺ.

ومن حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

* * *

عام من التحضير للثأر من الهزيمة المنكرة في بدر.

إصرار غير عادي على استرداد الهيبة التي ضاعت أمام ثلاثمائة وثلاثة عشر مسلما من جنود محمد ﷺ.

يأتي على رأس هذا التخطيط، ترتيب خاص لاغتيال اثنين من الجيش.

أما الأول، فهو الرسول ﷺ نفسه، ليتم القضاء نهائيا على تلك الدعوة التي أججت صراعا لا يريد أن ينتهي.

«كل هذا لك يا وحشي، إن قتلت حمزة»

هتفت بها هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، بكل ما أوتيت من غل وحقد وكراهية، للعبد «وحشى» الرجل الماهر في رمى الحربة، وتابعت وهى تخلع عقدها اللؤلؤي الثمين، وقلائدها الذهبية المرصعة من حول رقبتها، وهي تقدمها لوحشي، وطلقات الشر تتقافز من عينيها وهي تقول:

– كل هذا فوق حريتك يا وحشي، إن قتلت حمزة.

لم تستطع هند أن تفعل أكثر من ذلك لتنتقم.

ولو استطاعت.. لفعلت.

فلقد وصلتها الأنباء أن حمزة هوالذي قتل وأجهز على أبيها وأخيها وابنها وعمها.

يا للفاجعة.. حمزة وحده قتل أربعة من أهلها.

وإذا كان سيد وحشى «جبير بن مطعم» سيعطيه حريته مقابل قتل حمزة، بعد أن قتل حمزة عمه، فإن هند بنت عتبة، لا تريد أن تثأر لنفسها، دون أن يكون لديها أدنى شك في الوصول لهدفها.

كان مقتل حمزة بالنسبة لهند بنت عتبة أهم من المعركة نفسها، وانتصار قومها على المسلمين.

كان مقتل حمزة بالنسبة لهند، يعني لها أنها سترتاح من تلك النار المشتعلة في صدرها في كل وقت من ليل أو نهار، لا تريد أن تهدأ لحظة.

وباتت هند تحلم باقتراب اليوم الموعود.

ولقد جاء.

فبعد عام من هزيمة بدر، تجهز ثلاثة آلاف من المشركين عند جبل أحد، في تحفز كامل للنيل من

سبعمائة من المسلمين.

وبعيدا عن كل هؤلاء.. وبعيدا عن كل الخطط والأهداف والتعقيدات والحسابات.

كان يقف وحشي بعيدا، يراقب ويترقب..ليس له إلا هدف واحد:

حمزة.

ثمن حريته، وأموال ما كان يحلم بها، وعدته بها هند بنت عتبة.

ولم يكن من الصعب على وحشى أن يلحظ فارسا شجاعا مثل حمزة، من بين ما يقرب من أربعة آلاف مقاتل، وفي معركة شرسة كمعركة أحد.

فارس يعلن عن نفسه بريشة في صدره، ليرفع صوته بين المحاربين:

– ها أنا حمزة، هل من مبارز؟

كان سهلا جدا لوحشى، أن يلحظ ذلك المقاتل الشرس الذي يقطع الجيش من أوله لآخره، ثم يعود إلى أوله ضاربا بسيفه يمينا ويسارا، في قوة وخفة مذهلتين، لا يستطيع أن يوقفه أحد.

كان سهلا جدا لوحشى، أن يلحظ ذلك المقاتل الشرس الذي يضرب بسيفه ضربات سريعة قوية متلاحقة، تتساقط مع ضرباته الرؤوس على الجانبين في استسلام واستكانة، حتى يغار منه علي ابن أبي طالب والزبير بن العوام، فيقلدانه.

وإزاء شراسة المعركة، يفكر حمزة في أن يوجه ضربة نفسية للمشركين بإسقاط رايتهم، وبسرعة البرق، يتجه إلى حامل الراية، أحد مقاتلى بنى عبد الدار، فيسقطه، فإذا بآخر يحملها سريعا، ليكون على موعد مع حمزة ليرديه قتيلا، ليأتي الثالث والرابع، فلا يجدان إلا البطل الفذ لهما بالمرصاد.

ربما كان وحشي يريد أن يستمتع بمشاهدة ذلك البطل العجيب قبل أن يودي بحياته.

هو يراه إذن ويراقبه.. إلا أنه لازال ينتظر.

ينتظر أن يهدأ قليلا من ذلك القتال المتواصل، ليعطي له فرصة للتصويب الدقيق.

ينتظر أن يلتقط أنفاسه من ذلك الهجوم الشرس على كل من يقابله أمامه، حتى يستطيع تنفيذ مهمته بنجاح..

يتمنى أن يقف لثوان معدودة، يترقب من سيقف في دور الضحايا، لينفذ هو مهمته، ثم يطير إلى سيده يبشره ويقبض الثمن..

وفجأة.. تنقلب المعركة رأسا على عقب.

فجأة تتحول المعركة بانحراف مائة وثمانين درجة لصالح المشركين بعد خطأ الرماة.

ويسود الهرج في صفوف المسلمين، ويسيطر الشرود والتيه على الصف المسلم، ويهرع حمزة إلى الجبل ليقاتل بشراسة، يحاول السيطرة على الموقف قدر الإمكان.

ومن وراء الجبل.. كان يقف وحشي.. يترقبه ويتحين الفرصة.

وأخيرا..جاءت الفرصة..

أخيرا..ها هو يقف، يعطي لوحشي ظهره، ليتجه إلى ناحية أخرى من الجبل.

أخيرا جاءت الفرصة..

وبسرعة.. وبمنتهى التركيز.. استجمع وحشى كل مهارته في التصويب، ورفع الحربة وأخذ يهزها عدة مرات، بعدما اقترب بعض خطوات من هدفه، وهو لا يرى أحدا بعينيه من بين آلاف البشر إلا واحدا.

واحدا فقط.

حمزة..

وبكل ما أوتي من قوة.. وعلى طول ساعده، قذف وحشي الحربة.

وأخذت الحربة تشق الهواء بكل قوة، محدثة صريرا قويا لا يهدأ.

وبعد لحظات.. هدأ الصرير.

وبينما كان الفارس يلتفت.

إذا بحربة الغدر تنفذ من ظهره في قوة، لتخرج من أحشائه.

كم كان الغدر مؤلما !

كم كانت الخسة والجبن قاسيين !

وقاوم الفارس الشجاع.. قاوم بكل ما يستطيع من قوة، واستدار بجسده في صعوبة بالغة، لتقع عيناه على وحشي، ويرمقه بنظرة عرف منها وحشي أن حمزة عرف أنه قاتله.

ويالللمفاجأة..فبدلا من أن يسقط حمزة صريعا في مكانه.إذا به يتحرك بخطوات مثقلة نحو وحشي، وهو يقذفه بنظرات حادة، ألقت الرعب في قلبه حتى جعلته يتسمر في مكانه دون حراك..

إنها الشجاعة، حتى وإن كان صاحبها مضروبا بحربة، في مواجهة الخسة والنذالة.

تنتصر أيضا.. حتى ولو معنويا.

وأخذ حمزة الجريح يقترب من وحشي، والذي كانت تزداد دقات قلبه سرعة كلما خطا حمزة خطوة.

إلا أن دقات قلب حمزة كانت تخفت وتخفت.

وبعد ثوان.

هدأ القلب تماما.

وسقط حمزة.

وأخذ وحشي ينظر إليه، وهو لا يكاد يصدق أنه قتل حمزة.

وأنه نجح في امتلاك حريته من سيده، وجائزته المالية الضخمة من هند بنت عتبة.

ودون تفكير..أخذت قدماه تسابق الريح، ليخبر سيده جبير بن مطعم وهند بنت عتبة بالبشرى.

ليأتي دور هند.

كم يسفر الغل عن أعمال وحشية، لا يدرك الإنسان معناها إلا بعد فعلها.

ما إن كاد يأتي هندا الخبر، حتى التقطت خنجرا وانطلقت كالمسعورة إلى أرض المعركة، وإلى مكان استشهاد حمزة، وما إن وقع بصرها عليه، حتى أطلقت ما استطاعت أن تطلق من نظرات التشفى، قبل أن ترفع خنجرها بوحشية لتشق بطن حمزة، وتخرج كبده لتلوكه بأسنانها، فلا تستطيع أن تبتلعه فتمجه على الأرض، وتمسك الكبد فتعصره عصرا وهي تقول في وحشية أمام أبي سفيان الذي وقف يشاهد المشهد وهو يضحك:

- انتقمت.. انتقمت يا أبا سفيان.

ثم اندفعت بكل قوتها إلى صخرة عالية، لتصيح بأعلى صوتها وهي تمسك كبد حمزة في يمينها وهي تقول في تشف واضح:

نحن جزيناكم بيوم بدر

والحرب بعد الحرب ذات سعر

ما كان عن عتبة لي من صبر

ولا أخي وعمه وبكري

شفيت نفسي وقضيت نذري

أزاح وحشي غليل صدري

لم تنته الوحشية بعد.. ولازال الغدر له بقية..عندما يأتي أحد المشركين ليفتح فم البطل بخنجره، ويضربه عدة طعنات في فمه.

لا عليك يا بطل.

فما زادك هذا إلا شرفا وحبا عندنا.. ورفعة ومكانة عند الله ورسوله ﷺ.

نتذكر ونبكى وننتحب..كما وقف صاحبك محمد ﷺ أمام جسدك الشهيد الطاهر وانتحب، كما لم يفعل مع شهيد غيرك.. أبدا.

«لن أصاب بمصابك أبدا.. وما وقفت موقفا قط أغيظ إلي من موقفي هذا».

كانت الدموع تتساقط، والصوت متهدج، والأنفاس تتقطع، والرسول ﷺ ينطق بها وهو ينتحب نحيبا شديدا، بعد أن وقف على جثة حمزة، وهو لا يكاد تحمله قدميه، وتابع في تحد غاضب:

«لولا أن تحزن صفية -أخت حمزة- ويكون سنة من بعدي، لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير.. ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن، لأمثلن بثلاثين رجلا منهم».

إلى هذا الحد كان حزن الرسول ﷺ وغضبه؟

إلى حد أن يتوعد الرسول الرحيم ﷺ بالتمثيل بجثة ثلاثين من المشركين جزاء ما فعلوه في حمزة ؟

لقد كانت الصدمة قاسية والحزن أكبر من أن تعبر عنه الكلمات، ولم يستطع الصحابة الذين وقفوا بجانب الرسول ﷺ في هذا الموقف المهيب، إلا أن يزيدوا على وعد الرسول ﷺ قائلين في غضب حزين:

- والله لئن ظفرنا بهم يوما من الدهر، لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب.

ولأن العدل أحب إلى الله من الجميع، فلم يبرح الرسول ﷺ مكانه، حتى نزلت الآيات تقرر العدل في العقوبة، وتضع الرحمة في القصاص واجبا وفرضا.

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل].

لا عليك يا حمزة.. فبعد قليل من استشهادك، جاءك التكريم من فوق سبع سموات.

لا عليك يا شهيد، فقد وقع أجرك على الله، وهو أكرم الأكرمين.

وعندها.. يغمض الرسول ﷺ عينيه ثم يفتحهما وهو ينظر لجثمان حمزة قائلا:

«رحمة الله عليك، فإنك كنت وصولا للرحم فعولا للخيرات».

وجاءت اللحظة القاسية..

لحظة الوداع.. الآن يمر شريط الذكريات أمام عيني الرسول ﷺ.

الآن تتقافز إلى ذهن صديق الطفولة ذكريات البراءة والشباب والصمود والبطولة.

الآن نفترق..ليس هناك بد من أن نفترق..

وحمل الرسول الكريم ﷺ جثمان حبيبه حمزة ، وسار بها إلى أرض المعركة، ليضعه أمامه ليصلي عليه.

وهنا يقرر الرسول ﷺ أن يصلي على حمزة بعدد شهداء المعركة جميعا.

فيأتي الصحابة بشهيد آخر ليضعه الرسول ﷺ بجانب حمزة، فيصلي عليهما معا.

وكأن الرسول ﷺ لا يريد للحظة الفراق أن تأتي.

ولكنها ستأتي حتما..مهما كانت المحاولات لتأخيرها.

ومع الشهيد السبعين.. تحمل يد الرسول ﷺ حمزة لتدفنه.. ويلقي على صاحبه النظرات الأخيرة وهو يواريه التراب.

مات حمزة.. نعم هذه هي الحقيقة.

ويعود الرسول ﷺ إلى المدينة بخطوات متثاقلة، وعلى جانبي الطريق، كان البكاء يتعالى من نساء المدينة على أزواجهن وأقاربهن الشهداء.

ويقول الرسول ﷺ في أسى:

«لكن حمزة لا بواكي له»..

ويسمع سعد بن معاذ رضي الله عنه ما قاله الرسول ﷺ، فيريد أن يخفف عن الرسول ﷺ شيئا من حزنه، فيهرع إلى نساء بنى عبد الأشهل، فيأمرهن أن يبكين حمزة، فيفعلن، وما يكاد الرسول ﷺ يسمع بكاءهن، حتى يسرع إليهن قائلا:

«ما إلى هذا قصدت، ارجعن يرحمكن الله، فلا بكاء بعد اليوم».

كان الحزن على حمزة خطا هلاميا يسري بين الصحابة.

فحزن الرجال وبكى النساء وأشعر الشعراء.

وأشعر حسان بن ثابت:

دع عنك دارا قد عفا رسمها ... وابك على حمزة ذي النائل

اللابس الخيل إذا أحجمت ... كالليث في غابته الباسل

أبيض في الذروة من بني هاشم ... لم يمر دون الحق بالباطل

مال شهيدا بين أسيافكم ... شلت يدا وحشي من قاتل

وأشعر عبد الله بن رواحة:

بكت عيني وحق لها بكاها ... وما يغني البكاء ولا العويل

عـــلى أســـد الإلـــه غـــداة قـــالوا: أحمـــزة ذاكـــم الرجـــل القتيـــل
أصـــيب المـــسلمون بـــه جميعـــا هنـــاك وقـــد أصـــيب بـــه الرســـول
أبـــا يعـــلى، لـــك الأركـــان هـــدت وأنـــت الماجـــد الـــبر الوصـــول

وأشعرت فيه أخته صفية:

دعـــاه إلـــه الحـــق ذوالعـــرش دعـــوة إلى جنـــــة يحيـــــا بهـــــا وسرور
فـــذاك مـــا كنـــا نرجـــي ونرتجـــي لحمـــزة يـــوم الحـــشر خـــير مـــصير
فـــوالله مـــا أنـــساك مـــا هبـــت الـــصبا بكـــاء وحزنـــا محـــضري ومـــسيري
عـــلى أســـد الله الـــذي كـــان مـــدرها يـــذود عـــن الإســـلام كـــل كفـــور
أقـــول وقـــد أعـــلى النعـــي عـــشيرتي جـــزى الله خـــيرا مـــن أخ ونـــصير

كان الحزن أكبر من كل كلام.. وكانت الصدمة أقسى من أن تحتمل.

ولا شيء يهون على الرسول ﷺ ما أصابه في حمزة.

إلا هى .. هونت عليه بعض الشيء.

امرأة بسيطة قابلت المسلمين عند عودتهم لتسألهم بلهفة عما حدث، فإذا بأحد الصحابة ينعيها وهو مطأطئ الرأس، وبكلمات متثاقلة على لسانه وهو يقول:

« لقد استشهد زوجك وأبوك وأخوك »

وأغمضت المرأة عينيها وتماسكت بكل ما أوتيت من قوة وإيمان، وإذا بها ترفع رأسها لتسأل الصحابي قائلة:

« وكيف حال رسول الله ﷺ؟»

ويجيبها الصحابي في ابتسامة منبهرا وهو يقول:

– بخير.. هو بحمد الله كما تحبين.

إلا أن المرأة البسيطة تصر على أن تبهره أكثر قائلة:

– أرونيه، حتى أنظر إليه.

وتجلس المرأة في انتظار الرسول ﷺ الذي ما إن أتى، حتى انتفضت إليه قائلة:

«كل مصيبة بعدك أمرها يهون».

ويحكى الصحابة للرسول ﷺ أمر المرأة الشجاعة الصابرة..ويبتسم الرسول ﷺ.

أخيرا يبتسم الرسول ﷺ.. وتنجح المرأة في أن تهون على الرسول ﷺ مصابه قليلا.

لكنه حمزة.. والمصاب أكبر من أن تخففه الكلمات.

مصاب لن يقدر عليه إلا الزمن.

وتمر السنوات تلوالسنوات.. وبعد أربعين سنة يأتي سيل شديد على المدينة، فيأتي على مقابر الشهداء فيجرفها، فيأمر أمير المدينة بنقل كل الشهداء إلى مقابر جديدة تجمع كل شهداء أحد.

ويفتح الناس قبر حمزة.. ليجدوا جرحه كما هو ساخنا، وجسمه لايزال دافئا، كأنه استشهد منذ لحظات.

ويتناقل الناس الخبر.. وتعود الذكريات.. ويعود الناس إلى بيوتهم ليحكوا لأولادهم قصة البطل الشهيد.

حمزة بن عبد المطلب.

سيد الشهداء.

أسد الله.. وأسد رسول الله ﷺ.

* * *

obeikandl.com

دروس و تحليل

١ – هناك حقائق كثيرة نتجاهلها في حياتنا، ولكن قد تحدث مواقف تجبرنا على مواجهتها (حمزة يتجاهل صراع النبي ﷺ مع المشركين وموقف أبي جهل يضطره إلى المواجهة).

مساحة التجاهل في حياتنا ليست قليلة، وهي تختلف من شخص لآخر حسب شجاعته مع نفسه، وقدرته على محاسبتها وتقويمها، لكن المؤكد أن كل شخص يعرف شيئا من أخطائه التي يتركها دون مواجهة إلى أجل غير مسمى، وأن هناك من القضايا، التي يجدها المرء ثقيلة على نفسه، فلا يحاول حتى إثارتها في ذهنه ولو لدقائق..

وتتنوع القضايا التي يتجاهلها كل منا..

فمنا من يتجاهل قصوره في الصلاة أوأداء الزكاة، وهي أركان لا يكون المسلم مسلما إلا بها..

ومنا من يتجاهل علاقته المتجاوز فيها لزميلاته في العمل أوالجامعة، ويقنع نفسه بأنها علاقة عادية، ليس فيها ما يحاسبه الله عليها..

ومنا من يتجاهل تجهمه في أوجه الناس وتكبره عليهم..

ومنا من يتجاهل تعصبه لرأيه وتجاهله لآراء وأفكار غيره، حتى وإن كانت آراء وأفكارا قيمة، تستحق التفكير والبحث والتطبيق..

ومنا من يتجاهل الكفاءات في العمل، فلا يعطيها الفرصة والاهتمام..

ومنا من يتجاهل قضايا الإيمان الكبرى، كالجنة والنار والموت، ويظل غارقا في معاصيه، دون أن يفكر في مآله ومنتهاه..

كل منا يتجاهل أمرا ما.. ويخشى أن يستجمع شجاعته ليواجه ما يتجاهله، ويظل كذلك إلى أن يحدث الحدث الذي يجبره على مواجهته ومراجعة نفسه، وساعتها، ربما يكون الوقت قد فات، إما بحلول أزمة كبرى في حياته، أو بقدوم الأجل.

لابد من مواجهة النفس قبل أن تحدث الأزمات والمشاكل.. أوالكوارث.

٢– إيجابية المرأة لها دور كبير في صناعة الأحداث وصناعة الأبطال (إيجابية الجارية كانت سببا في إسلام حمزة بعد خمس سنوات من البعثة).

نجحت الجارية بإيجابيتها وحماسها، في أن تحرك حمزة بن عبد المطلب نحوالإسلام، بعد خمس سنوات من تجاهله القضية، رغم خطورتها، إنه موقف يكشف قدرة المرأة على تحريك الأحداث، سواء بطريقة مباشرة، أو عن طريق صناعة الرجال ذوي المواهب والقدرات والتأثير، لقد كانت أمهات الأئمة الأربعة، يدفعنهم دائما للبحث والاطلاع، حتى صاروا أعلاما ومصابيح، يضيئون

لأجيال وأجيال طريق الدنيا والآخرة، وكانت أم الدكتور أحمد زويل، تبث الثقة والأمل دائما في نفس ابنها، فكانت تعلق على باب حجرته منذ صغره، لوحة صغيرة مكتوب عليها: دكتور / أحمد زويل.

إن المرأة تحت يديها أجيال، إذا اهتمت بها وأحسنت رعايتها على أسس تربوية سليمة، سيكون لها دور رئيسي في تغيير الحياة، والدفع بها نحوالأفضل، فالمرأة صانعة الرجال والأبطال والمبدعين، إذا أدركت خطورة المهمة، وعظم أجرها عند الله.

٣- الباطل يخفي في طياته الجبن دائما، ولا يظهر جبنه إلا شجاعة الحق (أبو جهل يرتبك بشدة أمام حمزة، ولا يستطيع أن يواجهه).

قد يظهر الباطل قويا شرسا ثابتا واثقا، حتى يظن الناس أنه الحق، والحقيقة أنه ما من شيء جعل الباطل يظهر بهذه الصورة، إلا ضعف الحق وتراجعه وعزلته وعدم قدرته على المواجهة.

كثير من الشباب يجاهر بمعاكسة الفتيات في الشوارع أمام المارة، وما دفعه إلى تلك الجرأة، إلا غيبة النصح واللوم من الآخرين، وانزواء أصحاب الحق وسلبيتهم، فاندفع في طريقه وهو يعلم أنه لن يرده شيء، وفي اللحظة التي تحدث فيها مواجهة من متدين شجاع، نجد الشاب القوي المتنفش، قد انكمش وغطى وجهه الخجل، وتمنى لواختفى من المكان، بعد أن انكشف أمام الناس، وأمام نفسه.

إن قوة الحق لابد أن تضعف الباطل، ولكن ينبغي أن يكون إظهار الحق بحكمة وعلم، حتى لا تنقلب الأمور، ويصدم الحق، فتخلوالساحة للباطل من جديد.

٤- لابد أن يتعرض المرء لأحداث ومواقف تدله على طريق الهداية (حمزة يتعرض لموقف مع أبي جهل يكون سببا في إسلامه).

ما من امرئ، إلا و يعطي الله له فرصة أوأكثر للتوبة أوالهداية أو للوصول إلى الطريق الصحيح، والذي يحدث أن هناك من يشعر بالفرصة، ويصر على استغلالها، وهناك من يتجاهلها، فلا تأتي إليه مرة أخرى، بالتأكيد تعرض كل منا لشاب ملتزم أراد أن ينصحه في الله، أو حادث وفاة صديق أو قريب، كان كفيلا بتغيير الحياة، أو حدث مبهر في الحياة الاجتماعية أوالسياسية، أو كارثة طبيعية مأساوية تدعو للتأمل والوقوف مع النفس وقفة جادة، تغربل الماضي وتنقحه، وتهدي إلى المستقبل.

إن الله يعطي الجميع الفرصة تلوالفرصة؛ فإما أن يستغلها، وإما أن يظل يتذكرها يوما ما دون جدوى، وهو يعض بنان الندم.

٥- خيركم في الجاهلية خيركم في الإسلام (حمزة يتدفق الإيمان والحماس في قلبه بعد الإسلام).

لعل هذا الحديث الرائع البسيط لرسول الله ﷺ، يجعلنا ننظر للعصاة نظرة أمل و تمن، بدلا من نظرة الغضب والكراهية، نظرة تجعلنا نجتهد معهم لدعوتهم وإصلاحهم، ومحاولة استغلالهم فيما هو نافع ومفيد، نظرة تجعلنا ننتظر منهم الكثير الذي يستطيعون أن يخدموا به الإسلام، وينفعوا به الناس، لو سلكوا طريق الله.

حينها ستتوجه كل المشاعر إلى حب الله، وستتحرك القدرات والمواهب لتنشط في سبيله، وسيتحول هذا الشخص الجديد، إلى طاقة تبث الحماس فيمن حوله، يسابق الزمن لإرضاء ربه، كما كان يسابق الزمن لمعصيته من قبل.

٦- ثمن حرية وحشي كان قتل حمزة، وثمن حريتنا نحن، أن نعرف الإسلام ونفهمه ونجتهد في تطبيقه على أنفسنا أولا (جبير بن مطعم سيد وحشي يعده بالحرية مقابل قتل حمزة).

الحرية غالية، لا يشعر بقيمتها إلا من حرم منها؛ لذا كان جبير بن مطعم يعرف ما يقدمه لوحشي إزاء مهمة خطيرة وصعبة، وهي قتل فارس شجاع مثل حمزة، ولقد أقدم وحشي بحماس على تلك المهمة طمعا في حريته.

وإذا كنا لا ننعم بالحرية في مجتمعاتنا، فإننا لن ننعم بها يوما قبل أن نقدم لها الثمن، وثمن حريتنا كمسلمين، هوأن نفهم ديننا ونتناوله بصدق وإخلاص، ونعزم على تطبيقه في حياتنا بكل جهدنا، راجين رضا الله وثوابه، ونكون على استعداد لتحمل المتاعب والأذى في سبيل ذلك، وعندما ننجح في ذلك، سنعرف أننا في الطريق الصحيح لننال حريتنا، أفرادا وشعوبا وحكومات.

٧- الإسلام دين يقرر قواعد العدل ويصر عليها مهما بلغ من تعرض الظلم لأهله (آيات القصاص تنزل بعد مقتل حمزة وتوعد الرسول ﷺ والصحابة المشركين بالتمثيل).

الإسلام ليس دين انتقام وكراهية وتشف، إنما هو دين عدل، مهما وقع من ظلم وتجاوزات ترفضها الأديان وتمجها الأعراف والأخلاق، ويعاقب عليها القانون، ورغم كل ذلك، يطالب الإسلام المظلوم بالعدل في القصاص وعدم التجاوز بدافع الانتقام والتشفي.

إن رسالة الإسلام هي إرساء قواعد العدل في العالم، وعندما يدعو أحد غيره إلى شيء، عليه أن يطبقه على نفسه أولا .

٨- حب الله وحمل الرسالة والمبدأ، يهون مصائب الدنيا (المرأة تتماسك بعد سماع وفاة ابنها وزوجها وأخيها في أحد).

عندما يزداد تعلق الإنسان بالدنيا ، يزداد تأثير المواقف الصعبة والأزمات عليه بصورة كبيرة، تسبب له قلقا بالغا في حياته، سواء كانت هذه الأزمات متعلقة بالعمل أوالمال أو الصحة أو حالات الوفاة، وعندما يقل تعلق الإنسان بالدنيا، ويحمل مبدءا ساميا ورسالة نافعة، وتصبح له قضية

تشغله ويدافع عنها، حتى وإن كانت عملا خيريا يخدم به المجتمع ويخفف به آلام الناس، عندها تصبح المصائب التي تهز الناس وتزلزلهم، هينة وبسيطة، يستطيع تحملها، مستمرا في طريقه.

إنها نعمة من نعم الإسلام علينا.. إذا ما فهمناه وحملنا رسالته، سنشعر ساعتها أن ارتباطنا بالسماء أقوى بكثير من صلتنا بالأرض، وأن إيماننا بالله وبقضيتنا، يحمينا من هزات الأرض العنيفة، في الوقت الذي ربما تودي فيه بحياة آخرين.

* * *

obeikandl.com